على طريق الأصالة

(٩)

أخطر ما تواصى به المسلمون

على مر الأجيال

أنور الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

أخطر ما تواصى به المسلمون

على مر الأجيال

إن أخطر ما تواصى به المسلمون مستمداً من أعمق مقومات الإسلام هو القدرة الدائمة على مواجهة الحرب النفسية التي تحاول إخراجهم عن قيمهم وذاتيتهم .

فقد عمل الإسلام عـــلى تحرير أتباعه من التأثير الأجنبي بكل أنواعه ودعا إلى اليقظة ازاء الحرب النفسية التي تهدف إلى تغيير المعالم الأصيلة لعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم ومزاجهم النفسي، فقد كان أعداء الإسلام يعلمون أن الطريق الوحيد إلى تمزيق وحدة الأمة هو ضربها من خلال قوائم فكرها بإثارة الشبهات وإدخال مفاهيم وتفسيرات غربية تختلف عن التفسيرات الأصيلة .

ولقد كافح المسلمون تاريخهم كله لتحرير الفكر الإسلامي من هيمنة أي فكر آخر أو عقيدة أخرى ولذلك فإن من أهم المسئوليات

الملقاة على الكتاب والمثقفين والشباب اليوم هو النفاذ المستنير والقدرة الواعية عـــلى تعرف أبعاد الأخطار التى تحيط بالمجتمع والأمة والفـكر .

إن هناك عدواً خطيراً لا يتوقف عن إلقاء السموم البيضاء والشبهات فعلينا أن نتحصن بالحذر واليقظة ولنكن قادرين على مواجهة هذه الشبهات ودحضها ، وأن هناك حرباً نفسية تعمل على تشكيك أمتنا فى وجودها رغبة فى تدمير صمودها ومقاومتها تمهيداً لتدمير وجودها نفسه .

إن أهم أهداف الحرب النفسية « التخويف من الموت » أو الفقر ومن قوة العدو والإسلام قد كفل لنا كل ذلك وحررنا من هم الرزق وخوف الموت وملأ قلوبنا ثقة به فى مواجهة كل خطر :

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وليس من طبيعة المسلم اليأس والقنوط .

(٢)

عرف المسلمون الإسلام ليس ديناً فقط ولـكن دين ومنهج حياة .

وهو منهج متكامل مترابط لا يؤخذ منه جانب ويترك جانب ولكنه يؤخذ بكامله وإن أبرز مفاهيم الإسلام الذى انتصر به المسلمون هو أن تعاليم الإسلام وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها أو تفتيتها والأخذ بفرع منها دون آخر فكل فرع منها مؤثر فى الفرع الآخر ، متأثر به وقد دعا الإسلام إلى ضرورة التكامل بين تعاليمه الإجتماعية والأخلاقية والتربوية .

والإسلام ليس خادماً للمجتمعات إلا من خلال مقوماته ذات الإطار الثابت الواسع ، المرن فى الحركة الداخلية ، وليس الأسلام قضية ذلولا لأهواء البشر ولا مبرراً لانحرافات الحضارات والمجتمعات .

(٣)

إن أمة تشكلت وفق منهج قرآنى ربانى وصبغت عليه قروناً طويلة من العسير عليها أن تلتمس منهجاً آخر قد كونته أمم أخرى تختلف مع عقيدتها وتتباين مع مقومات حياتها .

ذلك أنه من خلال هذه المناهج الوافدة يتوزع فكر الأمة ويختلف هديها وتضيع أكبر مقومات القوة والصمود وهى وحدة الفكر التى هى مقدمة الوحدة الكبرى للأمة كلها .

ومن هنا كانت ضرورة الحذر من مدارس الإرساليات ومعاهدها وجامعاتها والتحوط من مناهجها فى التربية والتعليم التى تسرب السموم إلى الصحافة والثقافة العامة وإن مفهوم التحرر من التقليد الأجنبى يعنى بالضرورة تصحيح ما دسته الشعوبية والتغريب حول الإسلام والقرآن واللغة والشريعة الإسلامية من شبهات وسموم وتنقية المفاهيم والقيم من الشوائب والأخطاء .

ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستعصام بالقرآن فهو المصدر الأول والأكبر لحل جميع المتناقضات وهو العامل الأقوى لإمداد الفكر والأمة معاً بالأصول الأصيلة والحلول الصادقة التى تعصم حياة المسلمين من الاضطراب والتمزق ولا سبيل الى اقامة وحدة فكر إلا بتوحيد مصادر التربية والتعليم .

إن وحدة التعليم هى أساس وحدة الفكر والثقافة والأمة جميعاً .

(٤)

ومن أهم عوامل القدرة على مواجهة الحرب النفسية ومقاومتها الحفاظ على اللغة والتاريخ والتراث ،

ومفهوم المسلمين عن اللغة العربية . أنها لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم ، وقد أجمع الأولون والآخرون على اعجازه

بفصاحته إلا من لا حفل له به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق . ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنوا الفهم منها إلا بالمران والمداولة ودرس الأساليب الفصحى والاحتذاء لها وإحكام اللغة والبصر فى دقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق بها وكل هذا يجعل الترخص فى هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد . (تحت راية القرآن : الرافعى) .

ولقد عرف المسلمون اللغة العربية : على أنها لغة العرب ولغة الإسلام نفسه ، وقد كانت معجزة القرآن أن جميع الأمم التى تتكلم العربية وتفكر بها تجمعها وحدة فكر وتربطها آصرة إيمان واحد .

وقد وصف عمر بن الخطاب اللغة العربية فقال : إنها تثبت العقل وتزيد فى المروءة ، واللغة العربية غنية لا حد لغناها لقول الخليل ابن أحمد فى كتاب العين : إن عدد أبنية كلام العرب ١٢ مليون و٥ ٣ ألف و٤١٢ كلمة . ويقول الحسن الزبيدى : إن ما يستعمل من ألفاظها ٥٦٢٠ لفظاً فقط ، وعندما نزل القرآن بها أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والآرامية واليونانية والقبطية قبل أن ينقضى قرن واحد . وقد كتبت بها اللغات التركية والفارسية والأردية والأفغانية والكردية والمغولية والسودانية والأبجية والساحلية ، كما كتبت بها لغة أهل الملايو ، وقد حدث هذا منذ ألف عام .

ولا ريب أن القرآن هو الذى حفظ اللغة العربية وسيبق هذا النموذج الخالد دائماً قمة البيان العربى حيث يستحيل أن يظهر عمل من صنع الإنسان يفوقه بياناً .

وقد اعترف بذلك كثير من الباحثين فقال بول كراوس : لا لغة عربية بدون القرآن .

وقال سيديو : إن اللغة العربية حافظت على صفاتها بفضل القرآن وقد حاول النفوذ الأجنبى عزل اللغة العربيـــة عن مفهوم القرآن بالدعوة إلى تبسيطها وإشاعة العاميات ومحاربة الفصاحة .

• • •

أما التاريخ فقد كان مفهوم الإسلام له إنه تحقيق ملكوت الله فى الأرض يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض . يقول ولفرد كانتول سميث : ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع وإن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة وإن المسلم لا يفهم الإسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً » .

أوصى الإسلام المسلمون باليقظة وعرض كل ما يتصل بهم على القرآن مع النظر إلى ماوراء النصوص والكلمات والتوسع فى المراجعة والنظر فالإنسان عدو ما يجهل .

والعقل والإيمان معاً جناحان للحياة ، والعقل والقلب جناحان للمعرفة ، ولقدكان المسلمون دائماً كلما مرت بهم الأحداث وواجهتهم التحديات يلتمسون الإسلام فى منابعه الأصيلة ، فى القرآن والسنة الصحيحة .

والإسلام بالنسبة إلى العرب على اختلاف أديانهم وثقافاتهم هو تراثهم القومى ، وقد دعا الإسلام إلى التفرقة بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية والتقدم فى مفهوم الإسلام تقدم مادى ومعنوى معاً .

وليس فى القدر الإسلامى ما يميت شجاعة المسلم أو يؤدى إلى فتور همته والتجديد فى مفهوم الإسلام يقوم على أساس تعاون الماضى والحاضر ، ولا ريب أن ضعف المسلمين لا يمثل حقيقة جوهر الإسلام .

إن الذين يردون ركود المسلمين إلى الإسلام نفسه يخطئون فإن الإسلام براء من كل عناصر التأخر والركود ، ولقد أقام نهضة وأنشأ حضارة ما زالت تضىء للإنسانية من خلال الأجيال ، ولعل الحق

هو أن ضعف المسلمين إنما يعود إلى انفصالهم عن أصول الإسلام ومقوماته باندفاعهم فى حياتهم الى الترف وتعطيلهم الجهاد .

وقد تواصى المسلمون بالحذر من أهداف تحريف مفاهيمهم التى تتمثل فى العصر الحديث فى أهداف التغريب والاستعمار والغزو الثقافى التى تحاول هزيمة العقيدة بإذاعة الإلحاد وتقويض المجتمع والأسرة بنشر الإلحاد .

(٦)

لقد كان الإسلام قادراً على التجدد من خلال مقوماته ، ولم تخل حقبة من تاريخ الإسلام حتى فى أشد عصوره ضعفاً من المصلحين والمجددين من ذوى العقول المستنيرة والقلوب المؤمنة ، لقد كان شغل أعلام المسلمين الشاغل هو الرفض بالسماح لشخصية الإسلام الحضارية أن تذوب وتتلاشى فى أى حضارة أخرى .

ولقد كانت للإسلام انتفاضات بين فترة وفترة فسقط كل ما أدخل إلى جوهره من قيم غريبة عنه ، وقد كان الفكر الإسلامى قادراً دوماً على رفض الدخيل ، وطرد الجسم الغريب .

إن أبرز مفاهيم الإسلام فى هذا العصر هو إعطاء العلم والحياة والحضارة كالا أخلاقياً وتحرراً من عبودية المادة فالإسلام يرى أن كل حضارة لا ترتكز على الخير والفضيلة حضارة زائفة .

إن أهم ما فى الإسلام هو تلك المعانى التى تميزه عن سائر النظم هو طبع الحياة بطابع إنسانى وأخلاقى ، إنه يهتم اهتماماً على درجة واحدة بالدنيا والآخرة والنفس والجسد والفرد والمجتمع .

وليس الفكر الإسلامى فكراً تجريدياً ولكن منطلق الواقع الحى .

ولقد تقرر فى كل الثقافات أن انبعاث الأمم إنما يستمد وجوده من فكرها ومقوماتها وإن أخوف ما يخافه الاستعمار هو بعث الأمة عن طريق الإسلام . ومن القطع أن الفكر الإسلامى لا يعمل إلا ضمن إطار القرآن : الذى هو الحكم على كل ما يواجه المسلمين من فكر ورأى وأمر

(٧)

إن الطريق الوحيد إلى حفظ وجودنا وكياننا هو حماية العقائد والأصول التى تقوم عليها الأخلاق من الشبه والشكوك التى تطرحها الفلسفات المادية.

وإن أكبر عوامل النصر فى مفهوم الإسلام هو حماية الأصالة وحفظ الذاتية وإن يقظة المسلمين فى هذه المرحلة إنما يتمثل فى كلمة واحدة هى « تحويل الإسلام إلى إيمان وتحويل الكلمة إلى سلوك ».

إن أهم ما فى الإسلام هو المطابقة بين الكلمة والسلوك .

إن انبعاث الأمم إنما يستمد قوته من فكرها الأصيل ومقوماتها الحقيقية . وإن أبرز معالم الفكر الإسلامى فى مختلف عصوره ومراحله هو قدرته على أن يأخذ حاجته من أى ثقافة تفرض على أمته ويرد الباقى ، إنه لا يأخذ إلا ما يزيده قوة وما يتفق مع مقوماته الأساسية .

(٨)

ولا ريب بين الماضى والحاضر والمستقبل فى مفهوم الفكر الإسلامى ترابطاً وتكافلا ولا سبيل إلى تجزئته ومن العسير تصور الثقافة العربية منفصلة عن الفكر الإسلامى الذى يعد مصدرها الرئيسى الأصيل فقد طبع الاسلام الثقافة العربية فى الماضى ولا يزال يطبعها وسيظل يطبعها إلى مئات السنين .

(٩)

لقد كان من مقوماتنا الأساسية على مدى تاريخنا .

: القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان .

: حماية مقوماتنا إزاء كل غزو .

وقد كان الاسلام عاملا أساسياً وقاسماً مشتركاً فى كل حركات التحرر التى قامت بها الشعوب الاسلامية وأن النضالات الوطنية قد انطلقت جميعها تحت راية الجهاد فى سبيل الله ، وقد كان الاسلام فى أغلب هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية والثقافية ضد الاحتلال والاستعمار .

والإسلام لا يعزل المفاهيم عن التطبيق ولا يفصل بين القيم ، وللإسلام ذاتيته الخاصة ومقاييسه الخاصة ، ويمثل الإسلام النظرة الكاملة فى الأبعاد الانسانية الروحية والمادية والعقلية وهو جامع العلم والخلق معا ، كما هو جامع القلب والعقل ولا سبيل إلى فهم أى قطاع من الفكر الاسلامى على حدة ولابد من أن تلتقى القطاعات وتترابط.

إن إعادة بناء الفكر الاسلامى فى اطار الإسلام وعلى قواعده

الأساسية من وحدانية الله وسيادة الإنسان فى هذا الكون تحت حكم الله وفى ظله إنما يمثل جوهر الأيدلوجية التى لم تتوقف طوال عمر الاسلام والتى لا يستطيع العرب والمسلمون أن ينحرفوا عنها .

لقد أثبت الفكر الاسلامى استقلاليته وقدرته على البقاء فإنه فى عديد من أزماته لم يسقط ولم ينهار ولم تضطرب أصول مقوماته بل ظل محتفظاً بذاتيته فى مواجهة الغزو .

(١٠)

إن المفهوم الاسلامى قد تكامل تكاملا كلياً قبل أن يختار النبى محمد ﷺ الرفيق الأعلى وقبل الاتصال بالفلسفة اليونانية وان فهم الاسلام فهما صحيحاً عميقاً قد أعطى الجماعة الأولى شحنة من القوة والايمان والتضحية دفعتها إلى تحقيق رسالة الله فى الأرض وبناء الأمة واقامة الدولة وان الاسلام حين أصابته الأحداث وفى ظل أخطار الصليبية والتتار والفرنجة استطاع أن يفتح الطريق إلى قلوب جديدة فى جنوب شرق آسيا وفى قلب افريقيا فأضاف إلى معتنقيه أضعاف أصحابه الأصليين .

ولقد كان من أبرز قوانين الاسلام قدرته الفائقة على تجديد نفسه من الداخل ، وعلى إعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر أو أصابته دخائل تحوله عن جوهره وأنه كان دائماً كيانا حياً قادراً على الأخذ والعطاء قادراً على التوسع والتكيف مع المجتمعات والعصور .

ومنذ ظهر الاسلام وكل حدث فى العالم كان مرتبطا به على نحو من الأنحاء ومنذ أن انتشر الاسلام إلى اليوم لم ينغلب عليه من الأديان متغلب وان تغلبت على أمه شدائد الامم .

وإذا كان الفكر الاسلامى قد استقبل نتاج الثقافات الأجنبية فانه وقف منها موقفا واضحا هو الأخذ منها على قاعدته ورفض مايتعارض مع مقوماته وذاتيته وخاصة ما يتعارض مع التوحيد .

لقد كان الفكر الاسلامى ولا يزال مستعصيا على الاستسلام النظرية الوافدة التى قاومها طويلا وأعلن وجهة نظره واضحة فى مختلف القضايا .

(١١)

عرف المسلمون الاسلام منهجاً متكاملا جامعا : بين العقل والروح وبين الدنيا والآخرة وسطيا بعيداً عن طرفى الترف والنسك . متماثلا فى كل أمر من أموره ظاهرة فى أعماقه . فالانسان روح وجسد ، ولا يمكن تفسيره من جانب واحد من كيانه . من جانب الجسد وضروراته أو جانب الروح ودوافعه ، والإنسان لا تطبق عليه مناهج المادة ولا تشريحات الحيوان ولا تفسر دوافع الانسان بالطعام وحده أو الجنس وحده .

● ترابط العمل والايمان فى مفهوم الإسلام : وقد اتصل ذكر الايمان فى القرآن متصلا بذكر العمل الصالح أكثر من خمسين مرة (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وأخطر ما منى به المسلمون هو

إنفصال العلم عن العمل ، أو بقاء العلم دون الممارسة فى العبادة أو المعاملات .

(١٢)

• حرم الاسلام التفاضل بالأجناس والأنساب والطبقات وأنكر العصبية وعمل على تحرير العقل من الضلالات والتقاليد الباطلة وتحرير الفكر والارادة والعمل وتحرير الضعيف من القوى .

ويتميز طابع الحضارة الاسلامية بأنها حضارة متكاملة يعيش أصحابها لدنياهم وآخرتهم معاً ، ولها شريعة أثبتت قدرتها على البقاء وملائمة العصور والبيئات لربطها بين الروح والمادة ، وحرية المرأة والرجل ، وبروز الطابع الإنسانى ، وانطلاقها إلى العلم من منطلق القرآن فقد قدمت للانسان أصول المنهج العلمى التجريبى ، وربطت بين العلم والدين ، وبين السياسة والأخلاق ، وبين المجتمع والشريعة .

وقد قامت الحضارة الإسلامية على أساس تفاعل علوم الدين مع الحياة ، وتكريم العلم والعقل والتكامل مع القلب والوجدان .

(٣)

لقد انتصر المسلمون دائماً بالوعى الكامل لتاريخهم ودورهم فى الحضارة العالمية ، وما قدموه إليها من مناهج وتطبيقات واضافات علمية بلغت الذروة بتقديمهم (المنهج العلمى التجريبى) الذى كان مفتاحا لكل الانتصارات العلمية الحديثة .

لقد تأكد اليوم للعالم كله الدور الفعال الذى قام به المسلمون فى بناء حضارة أخلاقية واعترف الكثيرون اليوم بهذا الدور.

يقول جوستاف لوبون : كلما أمعنا فى دراسة حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهر لنا أن العرب هم الذين منحوا أوربا : « المدنية » : مادة وعقلا وأخلاقا وان التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه فى الوقت القصير.

ويقول بريفولت :

والحق أن الحضارة الإسلامية انبعثت إنبعاثاً طبيعياً من مقوماتها الأساسية من القرآن وتميزت عن الحضارات البشرية المختلفة بطابع العدل والأخلاق والتوحيد وقد إتسمت بالسماحة والإنسانية والأخوة العالمية إذ حرصت على توفير الحرية لغير المسلمين واحترمت شعائرهم وفتحت أمامهم أبواب المناصب.

رقم الايداع ٧٥٦٦/ ١٩٨٨ - مطبعة دار البيان
الترقيم الدولى ٨٠٨ - ٤٣٣ - ٩٧٧